

من صفحات النضال الماركسي الأمامي ... المغرب/ فيتنام

قراءة في كتاب حكاية انه ما – سيرة جينرال مغربي في فيتنام

الاثنين 12 تموز (يوليو) 2010

المناضل-عدد: 27

مناضلون عديدون انجبتهم الطبقة العاملة المغربية، وأبرزتهم إلى واجهة النضال الطبقي والوطني، ثم طواهم النسيان وطمسهم إعلام البورجوازية وروايتها للتاريخ. فيما يحظى بالمجد من خانوا نضال "الشعب" من أجل الاستقلال، ويُرفع المنحطون والمنبسطون إلى مستوى القديسين وينعتون بـ"أبناء الشعب".

محمد بن عمر الحرش، اسم قل من يعرفه، قبل أن ينفذ عنه عبد الله ساعف، بجهد محمود، الغبار في كتاب صغير، لا يناسب قامة هذا المناضل العظيم. يظل اسم هذا المناضل العمالي ثغرة كبيرة في ذاكرة النضال الشعبي بالمغرب، لا بد من سدها بإطلاع الجيل الجديد من المناضلين ضد الإمبريالية ومن أجل الاشتراكية بأسلافه على هذا الدرب.

بن عمر.. نشأة بروليتارية

"ولد محمد بن عمر الحرش قرب خريبكة سنة 1914 أو 1915 في أمزيك وسط قبائل عبدون، أصوله البدوية تبدو مؤكدة". ابن إحدى تلك القبائل الكبرى للأطلس التي قاومت حتى النهاية زحف القوات الفرنسية.

"كبر امحمد بن عمر الحرش في وسط اجتماعي متميز في هذه المرحلة الاستعمارية المعروفة بتكاثر القرى المنجمية وكان قد فرض إقامة هذه التجمعات السكنية استغلال مناجم الفوسفات بأولاد عبدون الذين جاء منهم، منذ البداية، عدد مهم من العمال. كانت نقط تجمعهم في هذه القرى كثيرة وذات بنيات متنوعة وغير متمركزة مخصصة بالدرجة الأولى لإسكان العمال".

كان جيل بن عمر نتاج ما أدخل نمط الإنتاج الرأسمالي من تحولات جذرية على المجتمع المغربي، قلبت بنياته التقليدية وأنماط عيشه رأسا على عقب. فاجتثاث الفلاحين وتجميعهم في المصانع والقرى المنجمية، وشدة الاستغلال والقمع الاستعماري، عوامل أتاحت تكون وعي طبقي أولي لديهم. التقاء هؤلاء العمال مع أوائل الشيوعيين الفرنسيين الذين أسسوا النقابية المغربية هو ما أنجب مناضلين نقابيين/ شيوعيين من معدن محمد بن عمر الحرش. مناضل اندمج في تكوينه ومسار حياته المقاومة المسلحة التي حطمتها الآلة العسكرية الاستعمارية، ونضال أجيال ما بعد إخضاع هذه المقاومة: مقاومة حضرية تجمع بين العمل السياسي والنقابي، ولكن دون أن يحيد بعينه عن قضايا الفلاحين.

يشهد له مسار حياته، وكتابات في الصحافة النقابية والعمالية الشيوعية لفترة الاستعمار (جرائد "إسوار" "لاكسيون سانديكال"...)، بوعي سياسي حاد، وغيرة طبقية قوية دفعته للاهتمام بقضايا الجماهير الفلاحية عندما اشتغل نقابيا بتأدية منطقة نفوذ الحزب الشيوعي آنذاك:

"الضرب، الشتم، السجن دون مبرر كأمثلة، هذا دون أن ننسى الظهير الشهير الذي يسمح باحتفاظ المقاوله بالعمل إلى غاية استيفاء لديونه، وبما أن العامل مرغم على الاستدانة للعيش، فإن هذا يعني ببساطة نظام القنانة، واستحالة مغادرة العامل الفلاحي لمشغله".
بن عمر جريدة "يسوار"، عدد 144 بتاريخ 29 نونبر 1947".

"إن الفلاحين المغاربة مفلسون تماما أو يكادون، لقد أرغموا على إعطاء البذور كضريبة. والعديد منهم اضطروا إلى بيع ماشيتهم لشراء الحبوب بـ 3600 فرنك للفنطار بعد أن كانوا قد باعوا قبل 3 أشهر بثمن منخفض جدا. آخرون باعوا أراضيهم بـ 1400 فرنك للهكتار".

وكمناضل شيوعي، بدأ تسييسه على أرضية العمل النقابي الذي كان يتم آنذاك في ظروف شديدة الصعوبة حيث كانت قوانين الاستعمار تجرم انتماء المغاربة للنقابات، كان بن عمر، يهتم بظروف العمل ومآسي العمال داخل المعمل وخارجه (الأحياء العمالية، ضحالة الأجور مقابل غلاء الأسعار...).

جعله حسه النضالي القوي ورفضه للاستغلال الرأسمالي للعمال نقابيا بارزا، محفزا العمال المغاربة للانخراط في النقابات "اتحدوا داخل النقابة لتنتز عوا حقوقكم". بيدكم أنتم "أن تنتظموا وتتحدا وتجيئوا لتعزيز صفوفنا داخل النقابات مع رفاقكم في النضال الذين لا يكونون في سبيل تكسير قيود عبوديتكم". (لا كسيون سانديكال). إنها كلمات يجب أن تحفر على جبين منظري النقابية الاقتراحية والمواطنة، نقابية تجميل العبودية من أجل تأبيدها.

بزغ نضاله النقابي والسياسي بعد عودته من الحرب العالمية الثانية فقد تجند "هو شاب في الجيش.. ما من شك في أنه شارك أيضا في الحرب مثل آلاف المغاربة، من أجل كسب الرزق... حاضريقوة في قلب الحماية نفسها، خصوصا منذ الإنزال الذي قامت به قوات التحالف في شمال إفريقيا بمناسبة عملية "طورش" نونبر 1942". بانتهاء الحرب، دخل بن عمر إلى المغرب ابتداء من 1945. ولا بد أن هذه الحرب قد فتحت أمامه الآفاق، حيث لعبت دورا محوريا في تكوينه السياسي. "كل المعلومات تتقاطع لتبين أنه لم ينتم إلى الحزب الشيوعي المغربي" الذي تأسس 14 نونبر 1943 "إلا بعد الحرب حيث كان يتمتع مسبقا بوعي وبمستوى سياسي عال..".

"يصفه ع الله العياشي القيادي حزب التقدم والاشتراكية" كشخصية جادة، لأمعة وذكية. لم يكن بالتأكيد رجلا ذا ثقافة جامعية، ولم يكن من طراز المثقف الذي يهيء بناء نظريا مجردا أو حتى من النوع الذي يقوم بتحليل على مستوى المفاهيم. كانت ثقافته تبدو بالأحرى عملية تم اكتسابها من الساحة. كان ذا تعليم ثانوي متين وعصامي إلى حد ما، كان يستعمل تعليمه في نشاطه السياسي. ويتذكر العياشي أنه عندما تعرف عليه أسر لأصدقائه الحميين: "تعرفت مؤخرا على شيوعي من ذلك النوع المثالي للعامل المثقف". لقد مضى الزمن الذي كان يتعرف فيه أعضاء حزب "التقدم والاشتراكية" إلى نماذج بن عمر.

ولا بد أن احتكاكه مع الشيوعيين أثناء الحرب في إيطاليا وإطالعه على منشوراتهم هو الذي حدد انتماءه السياسي، وقد كتب في هذه الفترة عن مشاركة المغاربة في هذه الحرب: "إن الشعب المغربي حارب بشجاعة البربرية النازية من الحدود التونسية إلى ألمانيا، ليس فقط من أجل حرية الآخرين ولكن من أجل حريته هو". في هذه الفترة كانت الأحزاب الشيوعية، قد تحولت من أحزاب للثورة الاجتماعية إلى أدوات للمناورة الدبلوماسية بيد البيروقراطية المعششة في الكرملين. هذا الواقع حرم الحزب الشيوعي المغربي من جعل كلام بن عمر هذا واقعا. ففي الوقت الذي ناضل فيه بن عمر من أجل حرية الآخرين في أوروبا ضد النازية، كان حزبه بالمغرب ينهج سلوكا آخر. يقول عبد الله العياشي "إن الشعار الصحيح في حد ذاته الذي كان يدافع عنه الحزب الشيوعي المغربي أثناء الحرب العالمية الثانية، والذي ينادي بالتعبئة الشاملة ضد النازية والفاشية إلى جانب الحلفاء لتحرير البشرية من خطر الهتلرية، قد ترك جانبا مطلب شعبنا في الحرية والاستقلال". (لمحات من تاريخ الحزب الشيوعي المغربي، مطبوعات "البيان" 1984).

عدول الحزب الشيوعي المغربي عن النضال من أجل الاستقلال، فيما كانت "جل التنظيمات السياسية المغربية... ترفع شعار المطالبة "باستقلال" المغرب، واقتصاره على المناداة، في توصية داخلية للجنة المركزية (فبراير 1946) بوحدة جماهير المغرب من أجل "تحسين مستوى معيشتهم وانتزاع الحريات الديمقراطية"، مهد طريق استحواد البورجوازية المغربية على مقاليد هذا النضال وإيقاف المد التحرري باستقلال شكلي يبقي ركائز الاستعمار الاقتصادية والاجتماعية وهذا ما أكد شمعون ليفي 1984 بالقول: "هيمنة القيادة البورجوازية على الحركة الوطنية حددت كثيرا من طاقات المبادرة المستقلة لدى الفئات الشعبية، وأدت إلى جمود القطاعات الأقل تسييسا في وقت وجيز". [لمحات من تاريخ الحزب الشيوعي المغربي- منشورات البيان- 1984]. اعتراف بعد فوات الأوان.

لهذا السبب تراجع نفوذ الحزب الشيوعي المغربي في صفوف العمال المغاربة، و التحق عدد من أعضائه بحزب الاستقلال. ما إلى الدعوة سنة 1947 لإنشاء الجبهة الوطنية مع أحزاب الحركة الوطنية، بدل تصحيح الخط السابق والعمل على قيادة النضال من أجل الاستقلال تحت قيادة الطبقة العاملة. لكن حزب الاستقلال رفض أي "تعاون وثيق أكثر من اللازم مع الحزب الشيوعي، معتبرا أن ذلك كان يهدد بفقدانه للدعم الخارجي وخاصة دعم الولايات المتحدة الأمريكية، ولهذا اجتهد ليقصر تعاونه معه على القطاع النقابي وحده". أي الميدان الذي سببهم فيه هذا التعاون على لجم تحركات الطبقة العاملة.

في هذا الوقت كانت تنتظر بن عمر المهمة الأكثر أهمية في حياته. مهمة انتشلتها من سياسة الحزب الشيوعي المغربي البعيدة كل البعد عن الماركسية الثورية، هذه السياسة التي ستجعل نهاية حياته مأساوية بعد عودته من مهمته بالفيتنام.

جنرال في جيش هوشي منه

أورد ساعف تعليق أحد الطلاب المغاربة في أوروبا الشرقية على بن عمر " ... يعطي مجددا للأهمية أهميتها الكاملة وهي إحدى المبادئ الكبرى التي كانت تبنى عليها نضالنا المتأججة خطبها وعملها". (مصطفى يزناسني، شاب شيوعي ومسؤول طلابي، كان يواصل في العاصمة البلغارية دراسات في العلوم الاجتماعية، التقى به بن عمر).

جسد بن عمر مبدأ الأممية هذا، القديم قدم الحركة العمالية، ولكن الذي لطخته الستالينية جعله عجلة احتياط في توافقاتها مع الإمبريالية. جسده ليس بالأقوال والخطابات ولكن بالتحاقه الميداني للمشاركة في جيش تحرير الفيتنام بناء على طلب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفيتنامي إلى الحزب الشيوعي المغربي. لقد جسد عمليا، وقبله بسنوات مبدأ تشي كيفارا القائل بأن وطنه هو أي بقعة يحس فيها الإنسان بالظلم. وقد كان في ذلك سلفا لهذا الثوري العظيم الذي ترك بلد الثورة/ كوبا لينشر الثورة في بلدان العالم الثالث.

توجه إلى الفيتنام سنة 1950 سرا مرورا بفرنسا وبلدان أوروبا الشرقية والصين... ولا بد أن كونه جنديا في الجيش الفرنسي ومشاركته في الحرب العالمية وقدراته العسكرية ونشاطه السياسي أهلتة لهذه المهمة. كانت مهمته الأساسية تأطير الأسرى والفارين المغاربة من الجيش الفرنسي. هؤلاء المجندين لابقاء بلد بعيد جدا عنهم تحت ربة استعمار، فيما يتواصل استعمار بلدهم. وشارك على رأس وحدة للمتطوعين المغاربة بالفيتنام، في انتصار "ديان بيان فو". عاش بن عمر الذي كان يدعى بـ"معروف" هذه المعركة كليا. "وسيطل مغرما بها حتى نفسه الأخير، انطلاقا من الإعداد لها والأشغال المرتبطة بها إلى غاية الهجوم النهائي".

"وحسب العديد من الشهادات، فإن أداءه ربما كان بطوليا تمام البطولة، لقد كان ضمن الوحدة التي قد تكون قامت بأسر دي كاستريس". سيحصل بن عمر من الفيتناميين على ميداليات من أعلى الدرجات وعلى رتبة جنرال، وهي رتبة استثنائية تشهد على التقدير الكبير الذي كان يحظى به كمساهم في عملية تحرير الفيتنام. أليس من المفارقة أن يتوجه عضو من الحزب الشيوعي المغربي للمساهمة في تحرير بلد في وقت يرفض فيه هذا الحزب رفع مطلب استقلال بلده.

إن مرحلة عصبية، حيث تقرر المصير السياسي للمغرب، كان قد أمضاها بن عمر في هذه المهمة التحريرية بالفيتنام. مهمة تراكتت فيها مهام التحرير الوطني مع مهام الانعتاق الاقتصادي والاجتماعي. هذا الربط الذي كان نتيجة لقيادة الحزب الشيوعي في الشرق لنضال الشعب الفيتنامي ضد الاستعمار كان يجد نفيه السلبي بالمغرب حيث تخلى الحزب الشيوعي عن قيادة النضال التحرري لحزب الاستقلال البورجوازي. هذه المفارقة ستجعل عودة بن عمر إلى المغرب عودة مأساوية.

على خلفية المشاركة في أهم المعارك التحريرية للشعب الفيتنامي، والانتصار على الإمبريالية الفرنسية في الشرق وحب الشعب الفيتنامي يشيعه، غادر بن عمر هانوي سنة 1960. لقد كان لهذه التجربة الفيتنامية دور كبير في حياة بن عمر بدونها لكان "مشواره، رغم كونه مليئا بالنضالات، ربما سيكون قليل الاختلاف عن مسار الكثيرين الذين ظلوا مناضلين "محلبيين" "أبناء البلد" ذوي مسار عادي تقريبا، فمشاركته في حرب الفيتنام تمنح بعدا آخر لنضالاته السابقة واللاحقة".

وقبل الوصول إلى المغرب تجول في بلدان ما يسمى آنذاك "المعسكر الاشتراكي" حيث لمس التناقض بين الخطاب والواقع خصوصا في العلاقة بين دول هذا المعسكر؛ "كان بن عمر يؤخذ على السوفيات كونهم سعوا إلى إثارة القطيعة وسعوا على الخصوص إلى خلق صعوبات للصين بسحبهم لمستشاريهم ووقفهم لمساعدتهم".

من العودة إلى المغرب...

قبل عودته إلى المغرب بقي بن عمر متسكعا بين عواصم جمهوريات أوروبا الشرقية وموسكو "لكن بن عمر كان يبحث بيأس عن العودة، كان لديه الانطباع بتجاهل الحزب لحالته، كان يعتقد بأنه لا يبذل ما يكفي من الجهود للحصول على عودته. نادى ونادى مجددا وألح.. وعاود الكرات عثا مرات عديدة.. أغلب العناصر المغربية التي التحقت بالفيتنام كانت قد عادت إلى البلد. أما بن عمر فكان يلاقي الرفض تلو الآخر من لدن السلطات المغربية. الغريب أن الروس أنفسهم كانوا يعارضون عودته وذلك بإظهار صعوبات ذات طبيعة قانونية".

إن الحزب الذي اخذ وجهة سياسية بعيدة كليا عن المسار السياسي لبن عمر، سينظر إلى عودة هذا الثوري بعين متوجسة. ففي هذه المرحلة من التاريخ السياسي المغربي كان الحزب قد التحق كليا بسياسة ما سماه آنذاك "دعم الجناح التقدمي في الحركة الوطنية" ودعم الحكومة دعما نقديا واقتراحيا. "عن خطأ أو عن صواب، شعر... أنذاك أن القادة الشيوعيين المغاربة لم يبدو مستعجلين ليروه عائدا، اعتقد، كما تؤكد لي كاميليا (زوجته) أنهم كانوا يريدون إرجاء عودته إلى موعد لا وجود له".

وكيف سيرحبون بعودته وهو المناضل الذي "...عاش في الفيتنام، الربط بين مقاومة من أجل التحرير الوطني والمقاومة من أجل التحرير الاجتماعي، وعدم تحقيق هذا الربط في المغرب؟ ألم تكن من الاعتراضات الأساسية لجيل المناضلين الشباب في نهاية 60 وبداية 70.. جيل كان كله إخلاصا لماركسية تسمى نفسها بالثورية. هي لماذا لم ينطلق التحرير الوطني بارتباط مع التحرير الاجتماعي سواء في المغرب أو باقي البلاد العربية؟". إن تجربته الفيتنامية إدانة لمجمل سياسة الحزب الشيوعي لما قبل الاستقلال وما بعده.

وصل بن عمر أخيرا إلى المغرب فبراير 1961، بعد 11 سنة من الغياب في مجاهل الفتنام. "لم ينتظرنا أحد" توضح زوجته كاميليا. طبعاً لن ينتظر الغارقون في سياسة انتهازية وكليبية تجاه أحزاب البورجوازية، مناصلاً ثورياً ساهم في الإطاحة بسلطة البورجوازية في بلد آخر. وكانت شهادة إبراهيم السرفاتي معبرة عن موقف الحزب الشيوعي المغربي: "لم يكن بإمكان الحزب الشيوعي المغربي ابتداء من 1965 لاندماجه بالنظام السياسي، من جهة، ولغياب استراتيجية ثورية لديه من جهة أخرى، أن يقدم الإطار السياسي مثلما كان قد استطاع أن يصحبه بن عمر في الفتنام".

تضافرت هذه الظروف مع التقاليد الستالينية البيروقراطية لجعل بن عمر يزداد نفورا من الحزب. فعند وصوله "علم بالمصير الذي أعد من قبل قيادة الحزب الشيوعي لإدريس العلوي، رفيقه في نضالات الأربعينات، وصديقه الكبير وأخوه. كان إدريس العلوي قد طرد كشرطي مزعوم، من اللجنة المركزية للحزب المجتمعة في وهران بداية يناير 1952 اعتماداً على تقرير لعللي يعته". إجراء وصفه إدمون عمران المليح الذي كان آنذاك أحد أمناء الحزب، في رواية "المجرى الثابت"، "بالخطأ المرتكب في حق إدريس العلوي"؛ وشرحه المؤرخ المختص بالحقبة الاستعمارية وبالحركة العمالية بالمنطقة المغاربية رونيه غاليسو كما يلي: "كان هذا الإتهام أصبح شبه أوتوماتيكي في السلوك الستاليني للقيادات الشيوعية، وبلغ الذروة في 1951-1952 بوجه الدقة، كانت الأحزاب الشيوعية تنظم "محاكمات موسكو" لأغراض داخلية" [تعريف إدريس العلوي في قاموس اعلام الحركة العمالية المغاربية ص 30].

طيلة فترة إقامته بالمغرب كان بن عمر باستمرار "رفقة إدريس العلوي الذي كان يتجرع المرارة أكثر فأكثر بسبب القرار الذي اتخذته الحزب والقاضي بطرده". لقد انضافت التقاليد التنظيمية الستالينية التي دمرت أجيالاً كاملة من المناضلين، بالوشاية والاتهامات الكاذبة بالعمالة، إلى خط الحزب السياسي ليجعل بقاء بن عمر في المغرب مستحيلاً.

ففي 1962 وبعد نقاش سري مع علي يعته، الأمين العام للحزب الشيوعي المغربي، عاد بن عمر وعائلته إلى خريبكة. تقول زوجته "طوال الطريق المؤدية إلى خريبكة، ظل صامتا، كأن شيئاً ما أفاضه. ومنذ ذلك الحين لم يكف عن الصراخ احتجاجاً على وصولية الشيوعيين المغاربة وقيادتهم. ثم استسلم خلال الأيام الموالية للخمر كما لو كان مصاباً بخيبة أمل عميقة". إن بن عمر شهيد تجربته الثورية الجسورة كان يبحث لدى شيوعيي المغرب عن الثورية فوجد الانتهازية، عن التضحية فوجد الوصولية.

... إلى مغادرته باتجاه الجزائر

طيلة هذه الفترة شغل بن عمر مهاماً نقابية (كاتب عام نقابة المكتب الشريف للفوسفات) وسياسية، وقد كلفته أنشطته النقابية ما بين شهر وشهرين سجناً سنة 1963. جاءت المشاكل المهنية لبن عمر الذي كان يشتغل بالمركب الكيماوي بأسفي لتفويض كأس المرارة المغربية في حياته ويشد الرحال إلى الجزائر لينضم هناك إلى المعارضة المغربية. "وصل إلى الجزائر في ظروف انقلاب بومدين على بن بلة، وتراجع الدعم الجزائري للمعارضة المغربية، وكان ينوي وضع تجربته الفيتنامية في خدمة مشروع الثورة المغربية".

هناك في الجزائر اصطدم مرة أخرى مع نهج قادة المعارضة المغربية المتبينة الكفاح المسلح (راجع كتاب أبطال بلا مجد - فشل ثورة . مهدي بنونة). هناك في معسكرات المفترض فيهم تفجير الثورة بالمغرب أكد بن عمر أن "جسامه المهمة التي تطرح أمامنا، وتنوع الأعمال الواجب إنجازها، وتعقد الأوضاع التي علينا مواجهتها خلال قيامنا بواجبنا الذي سيكون، وينبغي ألا ننسى ذلك، واجبا تاريخيا بالنسبة لتحرير شعبنا. كل ذلك يتطلب منا أشكالاً من التنظيم تسمح لنا بتعبئة أقصى حد من طاقتنا بأقل قدر من التردد"، "هذا التنظيم، ينبغي أن يكون مرناً وعملياً، مهيكلًا ومتعوداً على الانضباط، فالمسؤولية ينبغي أن تكون في نفس الآن فردية وجماعية".

واقترح "مخططا للتنظيم على شكل هيكل تنظيمي، ومما ينبغي ملاحظته هو أن هذا الهيكل مؤقت ويمكن أن يتغير وتحسن أشكاله شيئا فشيئا مع تطور الوضع، لكن المضمون يظل دائما هو نفسه". "كان يؤكد على أنه ينبغي تعيين المندوبين من طرف الحزب ويلج على أهمية تكوين المناضلين في مجال الأسلحة ويعتقد كذلك أن التكوين السياسي أهم من التدريب العسكري: كان يبدي حساسية خاصة إزاء ما يتعلق بالأسس السياسية لما هو عسكري". تعمقت خلافاته مع قادة المعارضة خصوصا الفقيه البصري، الذي كان يرى أن تصوره (أي الفقيه البصري) للكفاح المسلح وحرب العصابات كان خاطئا، فابتعد عن الفقيه تدريجيا. لما أصبح الخلاف بينهما عميقا وانتهى بالقطيعة بين الرجلين سنة 1970 غادر بن عمر الجزائر لتتخذ حياته مسارا مأساويا لا يليق بثوري عاش تجربة ثورية انتهت بالانتصار. انتهى سكيراً ومات وحيدا، إن ما يهمننا كثوريين هو كيف عاش البطل وليس كيف مات.

إن مأساة حياة بن عمر، تتجلى في ما أسماه إسحق دويتشر في ثلاثيته حول تروتسكي "الطلاق بين الماركسية الكلاسيكية وواقع البلد المتخلف". هذا الطلاق في الحقيقة لم يكن موضوعيا بقدر ما كان ذاتيا بالدرجة الأولى. إن مصير بن عمر يظهر لنا فداحة ما ألحقته الستالينية بجيل كامل من الثوريين، لقد طحنت بسياساتها التي تعتبر بقاء الاتحاد السوفياتي "قلعة الاشتراكية" هذا الجيل الذي حاول بناء قلاع أخرى للاشتراكية تكون لبنات بناء المجتمع الشيوعي العالمي. طحنتهم بتفاليدها التنظيمية البيروقراطية وبتحويلها الماركسية من نظرية للتغيير الاجتماعي إلى نظرية لتبرير مناوراتها الدبلوماسية مع الإمبريالية لتقاسم مناطق النفوذ. بن عمر... هل هو أسطورة

في بداية الكتاب حاول ساعف إعطاء تقديره لهذا المناضل بعبارات من قبيل: "كان ابن عمر قد أخذ أبعادا أسطورية بالنسبة إلي"، "شخصية لا يمكن برأيي إلا أن تلهب المتخيل" "المواطن الخارق للعادة". وهو أسلوب لا يعطي هذا المناضل حقه، أسلوب قد يجعل مناظلي اليوم، التواقين إلى حمل مشعل بن عمر، يعتقدون استحالة ظهور مناضلين من طرازه. إن ساعف الذي ترك ماضيه الماوي خلفه بعيدا وشغل لفترة منصب وزارة الهجوم على حق الشعب في التعليم، هذا الهجوم الذي سيجعل شباب اليوم يثور و ينتفض سيعمل بجد على جعل بن عمر أسطورة لا يمكن أن تتكرر.

لم يكن بن عمر الحرش أسطورة ولا خرافة أنتجها وخلقها "الغموض البئيس للبيوتيات الباقية فينا" حسب ساعف. بن عمر كان شخصا من لحم ودم، مناضل أنجبته الطبقة العاملة المغربية، وعاش سراء نضالها وضراءه. إن الطبقة التي انجبت بن عمر قادرة على إنجاب، وهي تنجب المئات مثله. شباب كله سخط واستياء من نظام الاستبداد والاستغلال، جيل يحتاج لنظرية ثورية تقيه عثرات جيل بن عمر. هذه النظرية ليست إلا الماركسية الثورية.

"كان ينبغي إذن أن تعطى لعمل بن عمر أهميته التاريخية الحقيقية". هكذا يقول ساعف. ونحن متفقون معه ولكن ليس بمجرد الكتابة عنهم ولكن بالاستمرار في الطريق التي رسموا بنضالاتهم بمآسيهم ودمائهم. وأول واجب هو إعادة نشر تراثه المنشور في الصحافة العمالية لفترة الاستعمار.

بعد هذا المسار الحافل لثوري لا يمكن إلا أن نعتبره عظيما توفي بن عمر الحرش يوم 7 ماي 1971. "ذهبت إلى الجنازة، لكنني وصلت متأخرا، لم يكن هناك سوى ثلاثة أشخاص: زوجته وأختاه وكان قد تم دفنه، كان الجو ممطرا ذلك اليوم وكنت أشعر بالخجل لتأخري". (حسن الصغير معارض مغربي).

توفي بن عمر يوم "7 ماي 1971. ألم تكن تلك ذكرى معركة ديان بيان فو؟". ومنذ وفاته انطلق الحزب الذي ساهم في بنائه في سيرورة تطور أشبه بطفرات بيولوجية انتهت بمسح سياسي "حزب التقدم والاشتراكية". حزب لا علاقة له بالاشتراكية إلا العداء، العداء للفلاحين الفقراء والعمال الذين وهب بن عمر حياته للدفاع عن حقوقه ومصالحه.

هذا الحزب الذي انتهى في مسيرة تطوره إلى تسوية الاستبداد السياسي وإعطاء مبررات أيديولوجية لتكثيف أفواه الصحافة ومصاحبة هجوم الإمبريالية الجديد، ينظم مؤتمره يوم 28 ماي 2010، أي على بعد أقل من ثلاثة أسابيع من ذكرى وفاته. إنه يرمقكم من قبره وكله أشمئزاز.

ننهي ذكرى هذا البطل العظيم بما أنهى به رسالة من داخل السجن: "ما أريدكم أيها الرفاق هو أنني ما دمت على قيد الحياة، فلن أفقد الثقة أبداً، فقضيتنا عادلة والشعب كله معنا". (رسالة من السجن نشرت في إسبوار ع 119).

ونحن أيضاً معك.

ملحوظة: جميع الاستشهادات الواردة بين مزدوجتين منقولة من كتاب عبد الله ساعف "حكاية أنه ما، سيرة جنيرال مغربي في حرب فيتنام، منشورات دفاتر سياسية/ سلسلة نقد السياسة، الطبعة الأولى، فبراير 2007.

علي أموزاي